

العناصر الزخرفية في العمارة الإسلامية خلال العصر الوسيط بين الوظيفة الجمالية

والأدوار المعمارية

د/ مرزوق بته - ود/ مراد لكحل

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

Summary:

The Islamic architecture of all three types (civil, military and religious), one of the most beautiful buildings in the world during the Middle Ages, because of their forms and patterns and functions and elements of architecture, in addition to what it contains a lot of different decorations and different decorations of plant and animal and engineering and written by the Muslim artist his architecture From inside and outside, as well as the architectural elements contained in these buildings, they are architectural elements with a decorative aesthetic function, and other architectural and architectural, and the artist has created any creativity in this area

مقدمة:

تعتبر العمارة الإسلامية بأنواعها الثلاثة (المدنية والعسكرية والدينية)، من أجمل العمائر في العالم خلال فترة العصر الوسيط، وذلك بسبب أشكالها وأنماطها ووظائفها وعناصرها المعمارية، بالإضافة إلى ما تحتويه من كثرة في الزخارف المتنوعة والمختلفة من زخارف نباتية وحيوانية وهندسية وكتابية زين بها الفنان المسلم عمارته من الداخل والخارج، وكذلك العناصر المعمارية التي تحتوي عليها هاته العمائر، فهاته العناصر المعمارية ذات وظيفة جمالية زخرفية، وأخرى معمارية تشكيلية، ولقد أبدع الفنان أبما إبداع في هذا المجال.

ومن بين هاته العناصر المعمارية الكثيرة والمتنوعة، سوف نقتصر في مقالنا هذا على بعض العناصر فقط، والتي سوف نذكر منها: المقرنصات، والعقود والأعمدة والنيجان. ولقد هدفنا من وراء دراسة هاتين لعنصرين إلى إبراز الدور الجمالي الزخرفي، والدور الوظيفي المعماري لهما. وعلى ضوء هذا يمكننا أن نطرح التساؤل التالي: ما هو الدور الوظيفي والجمالي الذي تؤديه هاته العناصر المعمارية؟ ولكن قبل الإجابة عن هذا التساؤل إرتأينا أن نعطي في البداية لمحة وجيزة عن الزخرفة الإسلامية ثم التطرق بعد ذلك إلى بعض العناصر الزخرفية المعمارية مع إبراز وظيفتها الجمالية، وأدوارها المعمارية.

1- لمحة تاريخية عن الزخرفة الإسلامية:

إنّ مفهوم الزخرفة البسيط هي إضفاء الشكل الجميل على المضمون أو التعبير، وهي من الفنون التابعة أي أنّها لا تكون منفردة ومستقلة لوحدها، لأنّها تنفذ على الأشياء المختلفة من جدران وأواني وغيرها من المواد المتنوعة.

وبعبارة أصح فهي تمثل الموضوع بالخطوط والأشكال والألوان والضلال بتحليلاتها وامتداداتها وتراجعها، والزخرفة كالظل بالنسبة للعمل الفني وتتصل بأداء الفنان وذوق المشاهد. وذلك كله بغرض جعل المحسوس لغة أصلية تحمل طابع الطراز أو الأسلوب، وهي تعتمد دائما إلى جعل الموضوع محسوسا معبرا¹.

إنّ الموضوع في فن الزخرفة الإسلامية هو تلك الزخارف صورا كانت أو أشكالا أو أحجاما من الكائنات الحية أو المواضيع الكتابية أو النباتية أو الهندسية، وما يتخللها من تصميم وتركيب ومزج وما إلى ذلك²، التي تزين الآثار الثابتة من عمائر مختلفة أو تزين التحف المنقولة، المصنوعة من مواد مختلفة كالفخار والخزف والمنسوجات والخشب والعاج والمعادن والزجاج والورق. وتعتبر الفنون الإسلامية أوسع الفنون انتشارا وأطولها عمرا، بحيث كان مولدها في القرن 2هـ/ 8م. وظلت تنمو وتترعرع حتى بلغت عنفوان شبابها في القرنين 7هـ - 8هـ / 13 - 14م

1- زكريا إبراهيم، مشكلة الفن، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1976، ص48.

2- لعرج عبد العزيز، جمالية الفن الإسلامي في المنشآت المرئية بتلمسان، دار الملكية، ط1، 2007، ص39.

ثم دبّ إليها الهرم والضعف منذ القرن 12هـ / 18م. بعد أن تأثر الفنانون والصناع في ديار الإسلام بمنتجات الفنون الغربية وأقبلوا على تقليدها. ولكن هذا التأثير لم يتمخض في معظم الحالات إلا عن صيغ فنية ممسوخة، وضعف في الوقت نفسه تماسك أولئك الفنانين والصناع بأساليبهم الفنية الموروثة، وضنوا بالوقت اللازم لإتقانها حيث أصبحت السرعة في الإنتاج والاقتصاد في النفقات أساس الحياة الاقتصادية¹.

ومنذ أقدم العصور والإنسان مدفوع بطبيعته إلى التأمل فيما يحيط به من أشياء، أدركها وأحس بجمالها واستمتع بها، وعندما ألحت على الإنسان الأول حاجته إلى التجميل والزخرفة، كان من البديهي أن تكون الطبيعة مصدر الهامة، واستوحى من بعض ما يحيط به من مشاهدتها، عناصر زخرفية لخطوط بدائية، زين بها كهفه ووشم بها جسده. وبمرور الزمن واستمرار التطور، وتوفر بعض أسباب أمنه وسلامته، ارتقى بفكره ونمت حواسه، بدأ في استخدام عناصر زخرفية بسيطة من الأشكال الهندسية والنباتية والحيوانية جمل بها مأواه، وبعض أسلحته وآنيته².

أ- فن الزخرفة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم:

إنّ الجماعة الإسلامية كان يغلب عليها في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، البساطة في العيش والجهاد في سبيل الله. فلم يكن المجتمع الإسلامي حينئذ مرتعا خصيبا للفنون الجميلة بأنواعها³.

وفي ذلك يقول ابن خلدون: (فكان الدين أول الأمر مانعا من المغالاة أو البنيان والإسراف في غير قصد)⁴.

لكن عندما اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى، جمعوا شتى الأساليب الفنية القديمة وطبعوها بطابع دينهم الجديد. واتسع أفق الفن في أعينهم، واستطاعوا أن يخرجوا صورا فنية جديدة لا تخرج عمّا رسمها الدين الإسلامي، على أن الأمر الذي يسترعي النظر هو

1 _ حسن ركي محمد، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، المقدمة.

2 _ حسن علي محمود، فن الزخرفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972، ص 05.

3 _ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1، دار الجيل، ط1، بيروت، 2001، ص 418.

4 _ ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار القلم، ط5، بيروت، 1984، ص 312.

أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير المحسم عنايتهم بالبناء والزخرفة لأنهم رأوا في ذلك تشبها بعبدة الأوثان، ولهذا كان العنصر الأساسي في زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية¹.

اتخذ العرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس، طرازًا خاصًا للعمارة يتناسب مع حالة معيشتهم، فامتازت مبانيهم بطراز خاص من الأعمدة والأقواس أو العقود والقباب والمقرنصات والدلايات. ولا شك أن الذين قاموا بالأعمال الفنية الأولى في الإسلام كانوا من السكان الأصليين، من السوريين والعراقيين والأقباط والبربر، وهم الذين وضعوا الأسس الأولى للزخرفة الإسلامية². إلا أن العرب استعانوا بمهرة الصناع في البلاد التي دخلت تحت سلطانهم، وبالرغم من ذلك فإن العمارة الإسلامية احتفظت بطابعها الجديد، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها³.

ب- فن الزخرفة في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين:

لقد تقدم فن الزخرفة الإسلامية في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين، ومن مميزاته الظاهرة استعمال النقوش الخطية العربية، فكثيرًا ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيت من الشعر أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة تدور حول حافة التحف الأثرية، أو تكون شريطًا زخرفيًا على أثر من الآثار.

وقد ازدهر في عهد الأمويين الذين تولوا حكم الخلافة الإسلامية من سنة 41هـ / 661م إلى سنة 132هـ / 749 - 750م. فن النقش على الجدران، ولا يزال بعض بقاياها ماثلاً في قصر عمرة الذي عثر عليه العالم أليوس موزيل **alios musul** سنة 1898م، وهو قصر صغير عبارة عن مبنى ذي طابق واحد مشيد بالحجارة، ويذهب علماء الآثار على أنه شيد في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي⁴.

1 _ حسن ركي محمد، فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص 08، 25، 43.

2 _ مرزوق محمد عبد العزيز، الفن الإسلامي تاريخه وحضارته، مطبعة أسعد، بغداد، 1965، ص 78.

3 _ حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 419.

4 _ عيد يوسف، موسوعة الحضارة العربية، ج9، دار كلمات للنشر، 1995، ص 1449.

كما أن خلفاء بني أمية استعانوا في بناء جامع دمشق سنة 88هـ/707م، بعمال سوريين وبيزنطيين لتحميله بالفسيفساء، وأتبع العباسيون (132هـ/750م) هذا التقليد في جلب المواد والصنّاع من مختلف الأقاليم، وبذلك بدأ أسلوب إسلامي ناشئ ينمو تدريجياً مشتق بالأخص من مصدرين فنيين هما: الفن البيزنطي والفن الساساني. ويلاحظ اقتباس التعبيرات الفنية من هاذين المصدرين ووجودهما جنباً إلى جنب في الآثار الإسلامية الأولى مثل: فسيفساء قبة الصخرة (72هـ/691-692م). وواجهة قصر المشتى¹، ولقد اختلف علماء في نسبة هذا القصر فمنهم من نسبته إلى يزيد بن عبد الملك (101-105هـ/720-724م)، لتشابه بعض عناصره المعمارية وعمارة العصر الأموي الأول. ومن العلماء من نسبته إلى الوليد الثاني (125-126هـ/743-744م)².

وقد نجح الأمويون والعباسيون في فرض أسلوبهما على الدولة الإسلامية، ووقفوا في ذلك إلى حدّ كبير، ولم يكن هذا النجاح وليد الصدفة، بل كان تطوراً منطقياً متمشياً مع ظهور حضارة جديدة، عرفت كيف تستفيد من الحضارات السابقة المحيطة بها³.

ومن خلال هذا العرض الخاص بأصول فن الزخرفة الإسلامية، نستخلص أن الفن الإسلامي لم يقتبس وحدات أو عناصر أو تفاصيل زخرفية من التقاليد الهلستينية أو الرومانية بطريقة مباشرة، بل كان الوسيط بينهما هو الطراز البيزنطي الذي يمكن اعتباره قد ولد من الطراز الروماني، وقام على كثير من تقاليده وأخذ أغلب عناصره ووحداته منه بعد أن أدخل عليهما أذواقاً شرقية⁴.

1 _ الشافعي فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، مج1، عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1970 ص 51.

2 _ عيد يوسف، المرجع السابق، ج9، ص 1447.

3 _ مرزوق محمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص 87.

4 _ Papadopoulo (a) , l'islam et l'art musulman ,éd, citadelles et mazenod ,Paris , 1980 , p 42

ومن الطبيعي أن مبتكرات المعماري في ديار الإسلام، لم تكن ذات طراز واحد في القرون الطويلة التي ازدهرت فيها الفنون الإسلامية، وطبيعي كذلك أنها لم تكن متناظرة ومتشابهة تماما في أقاليم الإمبراطورية الإسلامية كلها¹.

2- العناصر والمظاهر المعمارية المتصلة بالعمارة: أ. المقرنصات:

كلمة مقرنص مأخوذة -أغلب الظن- من الكلمة العربية "مقرنص" أي جالس القرفصاء. ويطلق الأوربيون على هذا الزخرف كلمة ستالكتيت stalactite، وهذه الكلمة الأوربية تعني في الأصل لأعمدة الكلسية الرفيعة المخروطية الشكل التي تتدلى من سقوف بعض الكهوف مثل كهف قديشة بلبنان، ولكن هذه الكلمة الأوربية لا تعبر عن كل الصور التي يتجلى فيها هذا الزخرف، إذ لا تصدق إلا على صورة واحدة منه².

والمقرنصات عبارة عن تقنية زخرفية يدوية ابتكرها البناء والمزخرفون المسلمون، قوامها أشكال هندسية بسيطة ثابتة، حيث تلتحم مع بعضها البعض، إما عن طريق التعشيق أو التركيب المتسلسل في الاتجاه العمودي المتطابق والأفقي المتجاور بكيفيات رياضية دقيقة جدا. قائمة على اعتبار المربع هو أبسط الأشكال الهندسية المتوازنة، وذلك باعتماد القيمة العددية لنسبة طول ضلعه، مقارنة مع طول وتره والتي تساوي دائما الجذر التربيعي للعدد اثنان، والذي يساوي القيمة المطلقة 1.414، كقاعدة أساسية لعلاقات التناسق والتناسب بين الأبعاد الحسابية لعناصره العضوية. فيكون بذلك منطلق تركيبها مستندا إلى نقطة مرجعية معلومة، مكونة بذلك زخرفة تجريدية ثلاثية الأبعاد (الارتفاع والعمق والعرض)، قصد التحكم في كيمياء الضوء، أو تقنية التلاعب بالظل والتي يبدو مظهرها الخارجي في أشكال متنوعة لا حدود لها، تبعا في ذلك لتعدد تقنيات التركيب المعتمدة، وكذا شكل وحجم مساحة الفضاء المعماري المشغول، وعليه فان قوام المقرنصات مدارج مسقوفة متطابقة ذات أشكال متعددة، حيث يتوسطها فضاء هندسي إما

1 _ حسن ركي محمد، أطلس الفنون الزخرفية، المقدمة.

2 _ مرزوق محمد عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت، د ت، ص 88.

مجوف وإما بارز، تتلامس وتقاطع فيه تلك الأشكال الهندسية المتجاوزة فيما بينها، بميل زاوية مقدارها قائمة (90°)، أو زاوية نصف قائمة (45°)، أو مجموع زاوية قائمة وزاوية نصف قائمة (135°)، وهي الزوايا الأكثر تداولاً بين أهل الحرفة، وتتلامس هذه الأشكال الهندسية مع سطح قاعدتها، بمقدار زاوية مستقيمة (180°)، حيث يسمى الفضاء الهندسي الذي تفرزه عملية لصق تلك الأشكال ببعضها البعض " بالبيت " وسلسلة البيوت المتجاوزة أفقياً على نفس الاستقامة " بالطبقة "، كما يسمى مقدار قاعدة الأشكال في التركيبة " بمقياس المقرنص ". وقد اتخذت المقرنصات من أربع مواد أولية أساسية خفيفة، حتى لا تؤثر بثقلها عن العناصر المعمارية المشيدة إذ نجدها إما مشكلة بالآجر أو مقولبة في الجص أو محفورة على الخشب أو منحوتة في الصخر¹. ويشبه المقرنص الواحد إذا أخذ مفصلاً مجموعته المحراب الصغير أو جزء طولياً منه، وتستخدم المقرنصات في صفوف مدروسة التوزيع والتركيب، حتى لتبدو كل مجموعة من المقرنصات وكأنها بيوت النحل². والمصدر الأصلي لهذه الزخرفة هو الكوة أو التجويف، الذي يقام فوق الزوايا الأربع لغرفة مربعة، يراد تسقيفها بالقبة حتى تستقر عليه، ولقد ورث المسلمون هذه الطريقة عن الأمم السابقة عليهم، واستخدموها في عمائرهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يصبروا طويلاً على بساطة تلك الكوة التي كانت قبل الإسلام عاطلة من كل زخرف. بل كاد يتهذب ذوقهم، وترتقي ملكتهم الفنية حتى أخذوا يعدلون في شكل الكوة، ويعقدون في مظهرها فقسّموا الواحدة منها إلى كوة صغيرة متجاوزة، بعضها راكب فوق بعض، وتفننوا في وضعها وتنسيقها وفي تزيين جوانبها بالرسوم المختلفة حتى بدت قطعاً من الفن الجميل³.

ويظهر أن بدء استعمال المقرنصات في العمائر الإسلامية، يرجع إلى القرن 5هـ / 11م.

ثم أقبل المسلمون على استعمالها إقبالاً عظيماً، حتى صارت من أظهر مميزات العمائر الإسلامية في واجهات المساجد، وفي المآذن وتحت القباب، وفي تيجان الأعمدة، وفي السقوف الخشبية،

1 _ شرقي الرزقي، تطور المقرنصات في عمارة المغرب الإسلامي (7-5هـ / 11-13م)، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 1999-2000، ص ص 30-32.

2 _ وزيري يحيى، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، ج2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص 135.

3 _ مرزوق محمد عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية، ص ص 88، 89.

واختلفت أشكالها باختلاف الزمان والمكان في الإمبراطورية الإسلامية¹. ويرجح أن أقدم مثال مؤكد التاريخ لهذه المقرنصة يرجع إلى عهد الخليفة المعتصم، عندما بنى الذي عرف بالجوسق الخاقاني سنة 221هـ/836م. إذ يوجد نموذج لها في باب العامة، وهو المدخل الرئيسي العظيم لقصر المعتصم على نهر دجلة في مدينة سامراء²، كما أنه ظهرت أمثلة لهذه المقرنصات في مدينة القيروان لتحمل القبة التي تتقدم المحراب، التي أقامها زيادة الله بن الأغلّب سنة 221هـ/836م³. وللمقرنصات عدّة أنواع نذكر منها:

أ) - المقرنصات ذات المركزين:

هي عبارة عن عقد شبيهه بالمخمس، ذي مركزين يتكرر هذا العقد في صفوف مترابطة، بينهما مسافات تسمح بإعطاء النسبة الجميلة لرجلي الدّلاية، من المسقط الأفقي للدّلاية المقرنصة نصف مثنى ضلعه الأوسط مفتوح إلى الداخل، كما أن نهاية الدّلاية مفتوحة إلى الداخل أيضا ومثمّنة الشكل، بحيث تتلاقى خطوطها من أعلى إلى أسفل.

ب) - المقرنصات المدببة:

هي عبارة عن عقد مدبب ومتكرر، نفس نظام العقد السابق، ولكن يختلف عنه بأن له زوايا بدلا من المراكز.

ج) - المقرنصات الكبيرة:

تستعمل أسفل القباب للتمهيد بين المربع والدائرة بالمثنى، ومن المثنى إلى المقرنصات. كما توجد في بعض الأحيان بين هذه المقرنصات فتحات "قنديليات"⁴، من الداخل ومن الخارج بحجر صناعي مفرغ من أي زخرفة، أو حديد ونحاس مشغول.

1 _ حسن ركي محمد، فنون الإسلام، ص 152.

2 _ الشافعي فريد، المرجع السابق، مج 1، ص 53.

3 _ حسن ركي محمد، الفن الإسلامي في مصر، دار الرائد العربي، بيروت، 1981، ص 265.

4- القنديلة: عبارة عن شبك من الزجاج الملون مثبت بالجبس.

(د) - مقرنصات بطنية العقود:

تستعمل هذه المقرنصات في بطنية العقد، التي لها من الأعلى بروز مستمر، حتى ينتهي بحطة واحدة من المقرنصات (صف واحد)، ومن الممكن زيادته إلى حطتين حسب نسبة البروز. وفي هذه الحالة تسمى بالمقرنصات المركبة، والعقد هنا هو الأساس، أما المقرنصات فتكون كحلية مكملة للعقد.

(هـ) - مقرنصات تيجان الأعمدة:

إن استعمال هذه المقرنصات بمحطات تقيّد بقطر بدن العمود وارتفاعه، بحيث تندرج الدلائل من أعلى التاج إلى أسفله (أي أعلى بدن العمود)، إما بحطة واحدة أو اثنتين أو ثلاثة على أن تكون نسبة ارتفاع العمود متماشية مع حطّات المقرنص، وطبيعي فهذا يرجع إلى التصميم. أما في حالة حطة واحدة أي صف واحد من المقرنصات، تكون وحدة المقرنص كبيرة لتعطي نسبة التاج¹.

وبعد انتشار المقرنصة الإسلامية وتطورها، تحول هذا العنصر بالتدريج من عنصر معماري إلى عنصر زخرفي، بحيث أصبح من أبرز عناصر الزخرفة الإسلامية التي ليس لها روح².

ب. العقود³:

العقد عنصر معماري مقوس، يعتمد على نقطة ارتكاز واحدة أو أكثر، ويشكل عادة فتحات البناء أو يحيط بها، وهو يتألف من عدّة حجارة، الواحدة منها تسمى فقرة أو صنجة. إنّ الباحثين يرجعون نشأة العقود إلى بلاد الرافدين، حيث ينذر الشجر ويقبل الحجر، وكانت مادته الأولى الطين والآجر ومن دون شك أتاح الفرصة للتحرر من القيود التي فرضتها مادي الخشب والحجارة. وأقدم مثال للعقود وجد في العراق ويعود إلى سنة 2900 ق. م⁴.

1 _ خلوصي محمد ماجد، عمارة المساجد - تصميم وتاريخ وطرز وعناصر - مطابع سجل العرب، 1998، ص ص 532-533.

2 - Bel (a) , les industries de la céramique à fés , éd ,carbonel , alger , 1918 , p 57.

3- يطلق مصطلح العقود على كل مجموع حجري أو آجري أو ملاطي مخصص لاجتياز فضاء يكون كبيرا، يتوسطه شكل مني يعرف بالعقد. ومعماريًا تعني قيو ذي شكل كامل برابطة قوية أو عدّة أقواس لجزء من دائرة. أنظر: الشافعي فريد، المرجع السابق، مج 1، ص 115.

4 _ الشافعي فريد، المرجع السابق، ص 201.

ولقد تفنن المسلمون في استخدام العقود وتنويعها حتى أصبحت طابعا إسلاميا معماريا، بحيث عرفت العمارة أنواعا مختلفة من العقود، وكان كل إقليم من الأقاليم الإسلامية يفضل بعض هذه العقود عن البعض الآخر.

اتخذ المسلمون أقواسا كثيرة ذات أنواع وأشكال مختلفة فمنها العقد المنحرف بالمقرنصات ونجده في الطراز الإسباني المغربي¹، والعقد النصف دائري والعقد النصف بيضوي والعقد ذي حدوة الفرس² في الشام والمغرب والعقد ذي الفصوص والعقد ذي ثلاثة فصوص والعقد الفارسي³.

يعتبر **العقد المدب** ابتكارا معماريا عربيا إسلاميا، وهذا العقد عبارة عن مستقيمين مائلين بزواوية معينة يتقابلان فيها إلى أعلى ليكونا هذا العقد، كما أن رجلي العقد هي خطوط رأسية مستقيمة وهو على نوعين:

العقد ذي المراكز الأربعة، والعقد ذي المركزين. فالأول ظهر لأول مرة في باب بغداد بمدينة الرقة بسوريا سنة 103هـ/722م. وفي باب العامة بسامراء، وفي جميع البائكات بجامع أبي دلف (246هـ / 860م).

أما العقد المدب ذو المركزين فقد ظهر في الجامع الأموي بدمشق (88هـ/707م)، وفي جامع ابن طولون بمصر.

وعرف المسلمون **العقد المنفرج** في الجوامع الفاطمية، وفي جامع القيروان وجد عقد يجمع بين العقد المدب ذي المركزين وعقد حدوة الفرس، كما عرف العرب العقد المفصص وهو عبارة عن قوس دائري ذي المركز الواحد، ولكن يختلف عنه باستقامة نهاية رجلي العقد، وبطائنته

1 _ حسن زكي محمد، فنون الإسلام، ص 150-151.

2- يدعى بهذا الاسم أو العقد البيزنطي، وهو النوع الذي له صلة بالاستدارة لأنه لا ينكسر في أعلاه وإنما يضيق في بداية أرجله، ومركزه يكون تحت نقاط الإشعاع، وقد شاع استخدامه بكثرة في عمارة المغرب الإسلامي. أنظر: الألفي أبو صالح، الفن الإسلامي، دار المعارف، ط2، لبنان، 1967، ص 136.

3 _ الألفي أبو صالح، المرجع السابق، ص 258.

تتألف من سلسلة أقواس نصف دائرية وتنتهي عند رجلي العقد، إما بكابولي أو مقرنصة¹، وأول ما ظهر في باب بغداد في مدينة الرقة وفي سامراء وفي نوافذ جامعها الكبير (234هـ / 848م)، كما أنه شاع استعماله في المغرب والأندلس حيث ظهر في رواق المسجد الجامع بقرطبة (169هـ / 786م). كما أستخدم العقد الذي تزين باطنه المقرنصات في بلاد المغرب والأندلس، وأجمل مثال يعبر عنه وجد في قصر الحمراء بغرناطة (755هـ / 1354م)، وفي مدارس بني مرين بفاس².

ج . الأعمدة:

العمود هو ما يدعم به السقف أو الجدار، ولقد أخذ العمود تسميات عدّة فهو عمود في المشرق، وسارية في المغرب، وشمعة في لبنان، وأسطوان أو أسطوانة على لسان بعض الكتاب. وإذا رجعنا إلى ظهور عنصر العمود في العمارة بصفة عامة، فنجد أن أول ظهور له كان في العمارة الإغريقية وكان في المعابد والكنائس، وتطور عند الرومان وحظي بمكانة، وتطور تطورا عميقا عند المسلمين في عمارتهم، حيث وجد في مسجد الرسول ﷺ مصنوع من جذوع النخيل، وتطور بعد ذلك حيث استبدلت بأعمدة من الآجر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم إلى الحجر في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه³. كما استعمل المسلمون في البداية أعمدة كانوا ينقلونها من الكنائس والمعابد والعمائر المخربة التي كانت تحملها هذه الأعمدة.

وفي جامع عمرو بالفسطاط سنة 21هـ/641م، أمثلة من هذه العمود المختلفة الطرز، ثم اتخذ المسلمون أعمدة من مبتكراتهم كالمضلعة تضليعا حلزونيا، كتلك التي وجدت في جامع ابن طولون بمصر، وكذلك الأعمدة ذات البدن المثلث الشكل، والتي نجدها تنتشر بكثرة في عمائر السلطان قايتباي بمصر. كانت أضلاعها تزين بالزخارف النباتية الدقيقة، وكانت الأعمدة الرخامية

1 _ خلوصي محمد ماجد، المرجع السابق، ص 500.

2 _ جودي محمد حسين، العمارة العربية الإسلامية، دار المسيرة، ط1، عمان، 1998، ص 69.

3 - Bourouiba (R) , Apport de l'Algérie a l'architecture religieuse Arabo-islamique , O P U Alger , 1985 , pp 73 , 78.

تستعمل أحيانا في سمك الجدران كأربطة لها، ومن أمثلة ذلك ما نراه في أسوار القاهرة وأبوإبها وجامع الصالح طلائع وجامع الظاهر ببيرس¹.

4. التيجان:

التاج هو ما كان في أعلا العمود متمما ومزيئا له، ولقد استعمل عنصر التيجان منذ القديم، فمنه التاج الفرعوني (الحتحوري، والبردي، والنخيلي، والناقوسي)، والتاج الإغريقي (الكورنثي، والأيوبي، والدوري)، والتاج الروماني² (الوسادي، والمركب) وتاج السلة البيزنطي وغيرها.

وعلى الرغم من تعدد أشكال التيجان وقواعد الأعمدة التي نقلت إلى العمائر الإسلامية في بادئ الأمر، فإن الفنانين المسلمين لم يقتبسوا من الفن البيزنطي سوى أبسط أشكال التاج الكورنثي، بعد اختزال أو راق وعدد صفوف الأكتس فيه واخرجوا منه نوعا إسلاميا، وجعلوه على شكل كأس على هيئة حلقات ولفائف أو عناصر مروحية انتشرت في الفنون الزخرفية الإسلامية، وأصبح من مميزات الرئيسية³.

ولقد ابتكر المسلمين أنواعا عديدة من التيجان⁴ مثل البصلية الشكل، وتيجانا تشتمل على صف من الوريقات النباتية تتصل في جزئها السفلي ثم تنتشر فتؤلف صفحة من الزخارف النباتية البديعة، كما عرفوا تيجانا من المقرنصات وتيجانا أخرى على هيئة الناقوس. وكانت تيجان الأعمدة تتصل ببعضها البعض عند بدء العقود بروابط خشبية قوية⁵.

1 _ حسن زكي محمد، فنون الإسلام، ص ص 152، 153.

2- اعتمد الرومان على طراز الإغريق مع التصرف في نسبها وتفصيلها، فعملوا لها طابعا رومانيا وجمعوا بين العناصر الرئيسية في كل من الأيوبي والكورنثي حيث برز النوع المركب.

3 _ الشافعي فريد، المرجع السابق، ص 1، ص 212.

4- أقدم تيجان في العالم الإسلامي تعود لجامع الكوفة، الذي أنشأ من طرف حاكم العراق زياد بن أبية تحت سلطة الخليفة الأموي معاوية ابن أبي سفيان، بعدها ظهرت تيجان قبة الصخرة بالقدس والجامع الأموي بدمشق التي اشتقت من التيجان الرومانية، أما التيجان العباسية التي تعود إلى سامراء فتشبه التيجان المصرية التي تتخذ زهرة اللوتس، أما تيجان الجامع الأموي بقرطبة فمعظمها ذات طراز مركب. أنظر: - Bourouib

(R), op-cit , p 94

5 _ حسن زكي محمد، فنون الإسلام، ص 153.

خاتمة:

إنّ من خلال ما تم عرضه يتضح لنا جليا بأنّ العمارة الإسلامية من أغنى العمائر في العالم من حيث العناصر المعمارية والزخرفة، التي زينت بها جدرانها وأسقفها وأرضياتها، وهذا راجع لبراعة الفنان المسلم الذي كان منه يكاد ينعدم في عصر الرسول ﷺ، وعصر الخلفاء الراشدين -رضي الله عنهم، لأنّ في هذه المرحلة كانت الأمة الإسلامية مشغولة بالتوسعات والفتوحات الإسلامية من أجل نشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، ولكن الأمر اختلف تماماً في عهدي الدولتين الأموية والعباسية أين نشاهد ازدهار وتطور كبير في مجال العمارة وزخارفها، أين بدأت متأثرة بالحضارات السابقة، مثل الحضارة الهلستينية البيزنطية، أين كانت معظم العناصر والزخارف تعتمد على هاتين الفئتين، ولكن سرعان ما تخلص الفنان المسلم من هاته التبعية التي كانت معظم الفنون فيها تتعارض مع تعاليم الدين الإسلامي، أين أبدع لنا نماذج وزخارف جديدة زين بها آنيته وعمارته وهي تتوافق مع تعاليم الدين الإسلامي، وهو ما لاحظناه في العناصر المعمارية التي كانت لها وظيفة زخرفية جمالية تتمثل تزيين واجهات المباني والأسقف، ووظيفة معمارية تتمثل في حمل الأسقف وكدعائم للجدران.